

فن السقي بمنطقة بني مزاب (جنوب الجزائر) بين توريث العادة وتقنيات الأداء Watering Art in M'Zab area (southern Algeria) between the inheritance of habit and versatility performance

نبيل حويلي*

جامعة الجزائر 2 (الجزائر)

Nabil.haouili@gmail.com

ملخص: (لا يتجاوز 10 اسطر)	معلومات المقال
تعد الحضارة المزابية (جنوب الجزائر) من تلك الحضارات التي شغلت الناس بما تحويه من ثقافة بارعة أنتجها الإنسان المزابي عبر مرور الأزمان وهي ثمرة جهده المتواصل في سبيل تحسين مستوى حياته وظروفها والتصدي لأهوالها. ومن عبقريته تكوّن العمران وتأسست القصور التي صُنفت من قبل اليونسكو، كما صنع الآبار والسدود. وسأسعى في مداخلي هذه الوقوف عند طريقة توزيع الماء وفنون السقي لدى أهالي منطقة بني مزاب والتي تترجع على سبع قبائل متفرقة: غرداية، بني يزقن، بنورة، العطف، بريان، القرارة، مليكة، وتُطلق كلمة بني مزاب على جزء مما يسمى ببلاد الشبكة كما سأقف عند طريقة الحفاظ على هذه المادة الحيوية التي تؤذيها جمعية أمناء السيل، وكيفية تأسيس منافذ للمياه الفائضة، بالإضافة إلى طريقة السقي والأشعار المتداولة أثناء العملية.	تاريخ الإرسال: 2023/04/07 تاريخ القبول: 2024/01/07 الكلمات المفتاحية: ✓ حضارة بني مزاب ✓ وادي بني مزاب ✓ تقنيات السقي ✓ فن السقي ✓ الصحراء والواحة
Abstract : (not more than 10 Lines)	Article info
The civilization of Beni M'Zab (south of Algeria) is one of those cultures that filled the people with a brilliant culture produced by the M'Zabi people through the passage of time, the fruit of his continuous efforts to improve his life. The genius of this civilization is the urbanization and the establishment of the palaces, which was classified by UNESCO, also made wells and dams containing water. In this intervention, I will try to identify the method of distribution of water and watering arts among the people of the region of Beni Mzab: "Ghardaïa, Bani Yazqan, Banoura, El Attef, Briane, Guerrara, Malika". And I will stand in the way of preserving this vital material in the life by the association of "Omana Al Sabil", and how to establish outlets for surplus water, in addition to the watering method and the circulating verses during the process.	Received Accepted Keywords: ✓ Mazab Civilization ✓ Bani Mzab valley ✓ watering techniques ✓ engineering ✓ desert and oasis

مقدمة:

إنّ الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الفكري، وتتألف من أربعة عناصر: التقاليد والقيم الأخلاقية والنظم الاجتماعية والنظم الاقتصادية بما في ذلك العلوم والتكنولوجيا. والملاحظ أنّ المجتمع المزابي اهتم بهذه الأسس مؤسساً هيئات عرفية توجّه المجتمع وانشغالاته وتشرف عليها، ومما لا ريب فيه أنّ الحضارة إنّما تتحقّق في المجتمع بالتربية والأخلاق وانتشار سائر العلوم ونمو الفكر،... الأمر الذي تمكّن الإنسان المزابي (الجزائري) تحقيقه بكلّ جدارة وثبات وافتخار.

ولقد جاء في "لسان العرب" لابن منظور: "الحضارة الإقامة في الحضر والحضر والحاضرة والحاضرة خلاف البادية، لذا فهي تعني الاستقرار والإقامة في المدن والقرى والريف وهكذا عكس البداوة المتميّزة بالتنقل في الصحاري وفي البداوي"¹ بمعنى أنّ الحضارة تتميّز بالتفاعل الاجتماعي المركّب، أمّا البداوة فتتميّز بالتفاعل الاجتماعي البسيط، على الرّغم من أنّها أسبق من الحضارة ذاتها، كون هذه الأخيرة ما هي إلّا مرحلة من مراحل التطوّر التي تمرّ بها المجتمعات البشرية.

ويشير العلامة "ابن خلدون" في مقدّمته المشهورة: "قد ذكرنا أنّ البدو هم المقتصرون على الضّروري في أحوالهم، العاجزون عمّا فوقه، وأنّ الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم. ولاشكّ أنّ الضّروري أقدم من الحاجي والكمالي سابق بق عليه، والضّروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه"². وعليه يمكن أن نصنّف الحضارة كمظهر من مظاهر السلوك الإنساني الذكي الذي سيطر على طبيعة محيطه الجغرافي ويتحكّم فيه، وكذلك باستخدام قواه النفسية وقدراته الدّهنية مستعينا أيضا بالفيزياء والرياضيات وعلم الفلك...

ويجب أن نشير إلى أنّه ثمة ارتباط كبير بين الحضارة والثقافة، فكلاهما من إنتاج الإنسان وتعبّر عن مرحلة من مراحل تطوّره كما ترتبط الحضارة أيضا بالتاريخ، ذلك أنّها تعبّر عن جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان الأمر ماديا أو معنويا، بينما يكون التاريخ تحصيل حاصل كونه مراحل زمنية وثمرات حضارية إنسانية، فنخلص إلى أنّ الحضارة جزء من التاريخ أو أنّها نتاج جانبي للتاريخ... ولا يمكن أن نتحدّث عن القيمة الحقيقيّة لأيّ ثمرة حضارية إلّا إذا جرّبها الإنسان في الاستعمال وعرف فائدتها وتعلّم كيف يصنعها.

1. منطقة بني مزاب: التطوّر الحضاري والموقع

1.1 التطوّر الحضاري لمنطقة بني مزاب:

يشير المؤرخ "يوسف الحاج سعيد" في كتابه "تاريخ بني مزاب" إلى أنّه يمكن تقسيم تاريخ منطقة بني مزاب إلى أربعة عهود متمايزة:

العهد الأوّل: ويمكن أن نحدّده بداية من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الرابع الهجري، وكانت البداية فيه تُعرف ببداية بني مصعب، وكان سكانها يغلب عليهم طابع البداوة والبساطة، ويمتاز هذا العهد بأنّ سكان هذه الأرض اعتنقوا الإسلام ببساطة وسبقت إليهم آراء المعتزلة فأخذوا بها، وحافظوا على نظام حياتهم كشعب يعتمد على الفلاحة بالدرجة الأولى...

العهد الثاني: وهو الذي تمّ تحديده بداية من القرن الرابع الهجري إلى نهاية القرن الثامن منه، وتمّ في هذه المرحلة تأسيس القوى الخمس الموجودة حاليا على وادي مزاب، واعتمد فيها السّكان على الفلاحة الثابتة، واعتنقوا المذهب الإباضي وتمّ تأسيس حلقة العزابة التي تدير شؤون النّاس، والتي مقرّها المسجد...

يزقن، بنورة، العطف، بريان، القرارة ويطلق أهالي المنطقة على منطقتهم تسمية "إغَزَزْ أَوْغَلَان" بلغتهم البربرية المحلية.

3.1 عن أصل التسمية والسكان:

تُطلق كلمة بني مزاب على ما يُسمّى ببلاد الشبكة التي تضمّ مدن وادي مزاب السبع، وحتى المدن والقرى المجاورة لها: متليلي، وضاحية بن ضحوة. وهناك الكثير من الروايات التاريخية التي أوردت عن أصل تسمية "وادي مزاب"، ولعلّ أهم تلك التي ترجع الكافة أنّها في بادئ الأمر تُنسب إلى القبيلة التي عمّرت المنطقة، وهي قبيلة "بني مصعب" وهي إحدى فروع القبائل الزناتة البربرية المعروفة، ويشير "الشيخ عبد الرحمان بكلي" قائلا: "سكان مزاب الأصليون من قبيلة بني مصعب البربرية، فرع زناتة العظيمة"⁵، أمّا "الشيخ مبارك الملي" يشير قائلا: "ومن أفخاذ بادين مصاب، بالوطن المعروف بهم، المدعو اليوم مزاب، والزاي والصاد متقاربان"⁶ وتحوّلت التسمية من بني مصعب إلى بني مزاب ذلك لأنّ البربر لا تُجيد نطق حرف العين، ويصعب عليها ذلك فينطقونه همزة أو ألفا، كما يقترب مخرج حرفي الزاي والصاد ومثال عن ذلك: صلاة/ ثازاليث والصوم/أزومي

وها هو العلامة "ابن خلدون" ينسب بني مزاب إلى "مصاب بن بادين" من قبيلة الزناتة، وهو من حلّ في وادي مزاب رفقة إخوته، ويشير العلامة قائلا: "وقصور مزاب، سكانها لهذا العهد شعوب بني بادين من بني عبد الواد ووبني توجين ومصاب، وبني زردال فيمن أضاف إليهم من شعوب زناتة. إنّ شهرتها مختصة بمزاب"⁷. ومع مرور الزمن توافدت أجناس من عروق أخرى وانصهرت في المجتمع المزابي الإباضي الذي لم يرقم على الانتماء العرقي، وبما أنّ اللغة المتداولة كانت البربرية فالجميع أضحي يتواصل بهذه اللغة وانصهر الجميع فيها.

2. الهندسة المعمارية بمنطقة بني مزاب:

العهد الثالث: ويدوم أربعة قرون ونصف قرن من الزمن، بداية من القرن التاسع للهجري إلى إمضاء عقد الحماية مع فرنسا سنة 1269 هـ وهنا توسّع العمران بالوادي بفضل ممارسة التجارة بالتّل... وجاءت إلى المنطقة طوائف جديدة أسست القرارة وبريان...

العهد الرابع: ودام قرنا من الزمن وفيه بدأت منطقة بني مزاب تفقد استقلالها السياسي، ودافع المزابي عن أرضه رفقة إخوانه الجزائريين ليحقّقوا الانتصار على الاستعمار الفرنسي الذي طال وجود في الجزائر.³

2.1 تحديد الميدان:

يُطلق على منطقة بني مزاب اسم الشبكة، لأنّ معظم مدنها وقراها وواحاتها تقع على هضبة صخرية كلسية شمال صحراء الجزائر، وسميت بهذه التسمية لأنها شبيهة بشبكة ينسج خيوطها أودية عديدة أهمّها: وادي مزاب، ووادي زقير، ووادي التّساء ووادي متليلي تنبع كلّها من الشمال الغربي وتنتهي في الجنوب الشرقي.⁴

تقع المنطقة على بعد ست مائة كيلومتر عن جنوب الجزائر العاصمة، في تقاطع خط العرض الشمالي 30,38° وخط طول جنوبي 45,30°، وتمتاز بصيفها الحار وشتائها البارد وهي منطقة قليلة الأمطار إذ لا يتجاوز المعدّل السنوي للأمطار 100 ملم. وهذا ما جعل وديانها قليلة السيالان عموما وتشهد المنطقة هبوب رياح رملية نهاية فصل الشتاء وبداية فصل الربيع قادمة من الجنوب الغربي.

شهدت المنطقة عبر التاريخ حالات جفاف حاد في سنوات: 1867، 1920، 1954،... كما شهدت أودية بني مزاب فيضانات جارفة سنوات: 1900، 1914، 1960، 2008،... وتضمّ بلاد الشبكة اليوم المدن السبعة المؤسّسة قبائل بني مزاب وهي على التوالي: غرداية، مليكة، بني

من الفراغ إنما ينطلق من منبع داخلي فطري يسقله المجتمع في قوانينه الحياتية اليومية التي استلهمها من خبرته الطويلة فيمزجها بعناصر الحياة المتوقّرة في بيئته من هواء وماء وتراب وشمس، حتى تستقيم الشروط الضرورية للمجتمع البشري...

وللبئر أهمية كبرى في حياة الإنسان كونه مصدرا أساسيا يحتزن مياه جوفية تُستخدم في الحياة اليومية للشرب والغسل والسقي ... ويعتبر البئر في المنطقة عنصرا أساسيا من عناصر العمران وقد فرض وجوده في هذا النظام المنسجم بفضل الدور الذي أداه في الماضي.

وتتواجد الآبار بمنطقة بني مزاب داخل البيوت وكذا بالقرب من واحات النخيل وعلى طول مجرى وادي مزاب وروافده المتناثرة هنا وهناك، كما تنتشر الآبار أيضا خلف أسوار قصور بني مزاب. وتشارك هذه الآبار في أنّها وسيلة لاستخراج المياه من الطبقات الجوفية ولكنه يمكن أن نلاحظ بأنّ الآبار الواقعة على مستوى مجرى الوادي أو الروافد وكذا على مستوى السدود والحواجر المائية والأجنة التي تصلها مياه السيول تتميز بأنّها مهيأة لاستقبال المياه المتدفقة بواسطة كوات تفني بهذا الغرض، ويتمّ عن طريقها إمداد الطبقات الجوفية بمخزون إضافي من المياه¹⁰.

ويُطلق على كلمة بئر تسميا مختلفة باللغة الأمازيغية الحلية والتسمية الشائعة لدى المزابيين هي كلمة "تيرست" (Tirest) وثمة مصطلح آخر وهو "إيغرسان"، ومفرده "إيغرس" أي البئر العميقة وعادة ما تُبنى بمواد تقليدية، كما نجد مصطلح آخر أقلّ تداولاً وهو الخطارة.¹¹

2.2 المواد المستخدمة:

تربط الإنسان المزابي بالحيط الجغرافي علاقة قويّة، ويظهر ذلك في المعالم المعمارية التي أسّس لها، إذ شيدت كلّ المباني بالمواد الخام التي تتوفر عليها المنطقة ومن هذه المواد ما يلي:

لقد أثار الإسلام في الهندسة المعمارية المزابية، لهذا نجد أنّ مدن بني مزاب قد بُنيت في أعالي الربوة والهضبة وفوق قممها، وبُنيت المساجد تعلو المنازل والبنيات، وحول تلك المساجد أسّست كتائب كثيرة لتحفيظ القرآن الكريم والتعليم العام، وبالقرب منها يوجد بيت خاص بالنساء اللائي يصلين مع الجماعة. أمّا عن مآذنها فقد بُنيت على شكل مخروطي دائري، وفي أسفل المساجد تنتشر الأسواق القديمة التي يقصدها الناس من كل صوب وحذب، أمّا عن البيوت المزابية فهي متلاحمة ومتلاصقة، أسّست كلّها داخل القصور وتتألف عادة من ثلاثة طوابق وتحتوي على دهليز تحت الطابق الأول وهو بمثابة مكيف لتكييف الهواء صيفا وشتاءً. ونجد في كلّ بيت مقاما للصلاة وآخر للضيوف ويكون عادة في مدخل البيت، ويستغلّ المزابيون الشمس وذلك حينما يؤسسون شبكا كبيرا تنساب منه الشمس والهواء في الطابق الأول، وتكون الدّيار مغلقة من جهة الشارع ما عدى باب الدّار الذي له خصائص فنية إسلامية⁸.

وأقام المزابيون مُدُنهم ومرافقها ملبيين عقيدتهم وبيئتهم بفكر جماعي تلبية لمطالب جماعية، فامتاز عمرانهم بالانسجام والوفاق بين أشكاله ومضامينه لمدة قرون طويلة من الزمن خاضعة للثقافة الإسلامية الأصيلة، وفي نفس الوقت لبيئة صحراوية وعرة. ويشير المهندس والأثنوغرافي الفرنسي "أندري رافيرو" (André Ravereau) في دراسته "مزاب في الهندسة المعمارية" قائلا: "إنّ الجانب النموذجي بصفته طريقة معمارية، يدعو إلى التأمل والتفكير من جميع الأخصائيين في الوقت الذي تزداد فيه الأشكال المعمارية الشاسعة في مدننا وقرانا"⁹.

1.2 الآبار:

يعدّ العمران -إذن- مرآة المجتمع وتعبير عن سلوكه ونمط عيشه، ولذلك ارتبطت كلمة العمران والحضارة عند "ابن خلدون" ولا نكاد نفصل بينهما، فلا ينطلق العمران البشري

تسير الأمطار الأولى والمياه الأولى مباشرة نحو ساقية "بوشمجان" لسقي واحة غرداية، وحينما تمتلئ الواحة يُحوّل فائض المياه نحو سدّ "ب-أوشان" (الذئب)، وتصل مياه أخرى من شعاب أودية "لعديرة" بشكل قويّ، تندفق لمدة 48 ساعة. ويُعتبر سدّ "ب-أوشان" من أكبر الحواجز المائية بواحة غرداية لحجز أكبر كمية من الماء لتزويد الطبقة الجوفية والآبار المنتشرة داخل الواحة. وتبقى مياه الحاجز أحيانا على مستوى السطح لمدة ستة أشهر، وهناك منافذ كما نشاهد خلال الشريط الوثائقي. يحوّل فائض مياه ساقية "بوشمجان" نحو سدّ "ب-أوشان" تحت إشراف جماعة أمناء السيل الذين يراقبون سيول المياه ليل نهار.

ولقد بنى هذا السدّ "الشيخ حمو ولحاج" ويوجد فيه بئرين كبيرين لتحويل المياه إلى عمق الأرض حيث يصعد مستوى مياه الآبار بعد جفاف مياه السدّ، ويشرع الفلاحون في استغلال مياه الآبار لسقي البساتين. أمّا الحاجز الثاني فهو سدّ التوزوز وعندما يمتلئ بالمياه يجنّب منطقة بني مزاب الجفاف لمدة سبع سنوات، والفرق الموجود بين سدود الشمال عن مياه السدود الصحراوية، أنّ الأولى تبقى مياهها فوق سطح الأرض، بينما مياه السدود الأخرى فتخزّن داخل باطن الأرض.

كما أقام المزابيون أبراجا للمراقبة في أعالي التلال والوديان وعلى كلّ ضفافه لمراقبة السيول والتنبؤ قبل حدوث أيّ مكروه أو طارئ (مثلما تبيّنه صور الفيديو). وللحدّ من خطر السيول والمياه الجارفة، أنجزت سدود فرعية وحواجز أخرى في أعالي الوادي، كسدّ وادي الأبيض الذي يصل حجم مياهه إلى 20 مليون متر مكعب من مياه الأمطار المتجمّعة. وأيضا سدّ "بوبريك" الذي يسمح بتخزين نفس الكمية من المياه المخزّنة في الري الفلاحي. وفي نواحي واحة غرداية الكبيرة إلى الجنوب نجد

الحجارة: تُستعمل الحجارة الكبيرة والمتوسطة وحتى الصغيرة المستخلصة من الطبقات الصخرية الرسوبية المكوّنة للهضاب الصخرية المحيطة بالوادي، أمّا الصفائح الحجرية فتسمّى "مادّون" فنجدها في مقدّمة البئر والحوض الأول، وعادة ما تكون هذه الصفائح الحجرية كبيرة الحجم.

رمل الأودية: وهو رمل يترسّب الودية بعد سيلان الغدير، يكون ممزوجا بالحصى وقد يخضع إلى عملية الغربلة حسب الحاجة، ويُستخدم الرمل في مختلف مراحل البناء.

الجبر: ويستخلص من الصخور الكلسية الأفقية المكوّنة لهضبة وادي مزاب، وذلك بعد حرقها وغليها في درجة حرارة تصل إلى 900° درجة مائوية لتتحصّل على الكلس الحي، ويُضاف إلى الماء ليتحوّل بعد الغيلان إلى كلس مطفيّ، ليختلط برمل الوادي ويترك لفترة ويصبح عبارة عن بلاط صالح للاستعمال.

الجبس: مادة طبيعيّة تتكوّن من ثنائي هيدرات كبريتات الكالسيوم، تتواجد بكثرة بهضبة بني مزاب على شكل صخور رسوبية، ويُستخدم الجبس غالبا كرابط أمّا فيما يخصّ البئر فيُستعمل الجبس في بناء المساند أحيانا ولتثبيت العوارض الأفقية أحيانا أخرى.

جدوع النخيل: تكتسي أشجار النخيل أهميّة بالغة لدى المزابيين، وتستغلّ هذه النخلة المشرفة على الهلاك وهذا حفاظا على الثروة الوحاتية التي تُعتبر المورد الغذائي الأساسي لسكان المنطقة، حيث يتمّ تقسيمها طويلا إلى قسمين أو أربعة حسب سمك الجذع وما يتناسب مع طبقة المبنى، ويُستخدم جدوع النخيل في بناء الآبار وذلك حينما يؤسّسون للعوارض الأفقية وأدرك البكرة كما تُستخدم في بناء السدود والحواجز.¹²

3. طريقة توزيع مياه السدود والحواجز المائية وفن

السقي بمنطقة وادي مزاب¹³:

سدّ "الشبور" الذي بُني بواسطة التوزيع* في تسعينات القرن الماضي لحجز مياه الأودية وتحويلها إلى سدّ "التوزوز".

وهناك السدّ الجديد الواقع وسط الواحة والذي بُني عام 1897م بواسطة الحجارة والجير ويُستغلّ لسقي البساتين والأراضي الفلاحية، كما يُبنى على طول مجرى الوادي مجموعة من السدود لواحة غرداية يصل عددها إلى 15 سدّ وكذا الحواجز المتوسطة والكبيرة، كسدّ "حمو بلغنم" وسدّ "بوحدية" وسدّ "كاسي بوهون"، وسدّ "خطارة"، وسدّ "مراوت"، وسدّ "بعمور الشيخ بلوح"... إلى غاية قنطرة "سالم أوعيسى". وعند وصول المياه إلى "بوشمجان"، تدخل المياه إلى منطقة "نوح" من الجهة الغربية، أما الجهة الوسطى فتصرف المياه إلى ناحية "حمو عيسى" و"عمي يونس" و"موش"... أما الجهة الشرقية فتصرف المياه إلى ناحية الشعبة التي تستوعب سيلان المياه، وهي منطقة معمورة بالغابات وأشجار النخيل، وبفضل هذه الكمية الهائلة فإنّها لا تعرف الجفاف لمُدّة سبع سنوات.

ويوجد بين مدخل الساقية "بوشان" والشعبة مجموعة من الأنفاق تحت أطنان من التربة بُنيت بواسطة مواد محلية تعتمد أساسا على الحجارة بأنواعها والجير والجبس ورمال الوادي... ويعود تاريخ بنائها إلى عدّة قرون، وفوقها نلاحظ مجموعة من الثقوب السطحية (ينظر الشريط الوثائقي) وهي عبارة عن آبار متصلة بالقنوات الأرضية لها استعمالات كثيرة كالتهووية والتنقية من مختلف الشوائب ممّا تجرّه المياه. وحينما تمتلئ ساقية "بوشمجان" تحول مياهها إلى سدّ "ب-أوشان" ثمّ إلى مجرى الوادي، وبينما تسيل المياه يقوم أهالي المنطقة بتأدية العائدي** ليعملوا قدوم المياه وتؤدّي الجماعة مجموعة من الأشعار على هذا النحو:

"صلّوا على محمّد، صلّوا عليه، يا محمّد يا الحضري..."

صلّوا على محمّد، صلّوا عليه، يا محمّد يا الحضري...

لا إله إلا الله ... لحَمِيس ذ-أس عمّادان

لا إله إلا الله ... أسان-الجمعة

لا إله إلا الله ... أمان سواند نقيا

لا إله إلا الله ... أدوين أمان نفعان أورتسُرتان

لا إله إلا الله ... أتشّران س-إجماع

لا إله إلا الله ... أضرؤتت-أزدايين

النص المترجم:

"صلّوا على محمّد، صلّوا عليه، على محمّد أيّها الحضور الكريم

"صلّوا على محمّد، صلّوا عليه على محمّد أيّها الحضور الكريم

لا إله إلا الله ... إنّ اليوم يوم خميس نبدأ السقي

لا إله إلا الله ... إنّ اليوم يوم جمعة

لا إله إلا الله ... لقد ارتوت الأرض بمياه نقية

لا إله إلا الله ... إنه ماء ينفع ولا يضرّ

لا إله إلا الله ... سينتفع منها الجميع وينعم

لا إله إلا الله ... وترتوي أشجار النخيل وتثمر"

وفي نهاية العائدي يُعيد تقديم فاتحة الأبيات وهي على هذا

النحو:

"صلّوا على محمّد، صلّوا عليه، يا محمّد يا الحضري..."

صلّوا على محمّد، صلّوا عليه، يا محمّد يا الحضري...

وتردّد الجماعة الحاضرة ردّا على هذا النحو: أواه ... أواه ...

وينتظر الأهالي خاصة الأطفال منهم بفارغ الصبر قدوم

الضيف ويتطوّع أحد من رجال أمناء السيل بإخبار الناس وتنبيه

من هو غافل بمسكنه أو بستانه... وهو يخبر الأهالي خاصة

النساء منهم والأطفال أخذ احتياطاتهم لقدوم السيول الجارفة،

بينما يستعمل الأهالي بدل النداء البارود على إثر الفيضانات

والمياه القويّة المتدفّقة أي حينما يكون هنالك خطر ما، وبعد

برهة تصل المياه إلى السواقي... وحسب خيرا أمناء السيل فإنّ

مياه الأمطار التي تسقي البساتين غنيّة بالمواد العضوية

مساحة الأراضي وعدد أشجار النخيل، يرتبونها واحدة تلو الأخرى كالأصابع وبلاستعانة بإبريق الفخار وجريد النخل من طرف خبراء أمناء العرش التابعين للمسجد، ومهمتهم المحافظة على هذا التراث الفريد من نوعه في العالم.

ويوجد هنالك حملة التطوع "ثيوزا" التي تنطلق شهر سبتمبر ويشارك فيها كل الأفراد الذكور كما ترمج الحملات في كل الأوقات وفي كل مناسبة ينادي المنادي الناس للعمل والتطوع وكل واحد يجلب معه وسائل العمل بمختلف أشكالها لخدمة العرش وتنقية السواقي والأنفاق من كل الأوساخ والأتربة والشوائب وهم يرددون أشعارا أخرى تنم بوحداية الله والدعوة إلى العمل ليبارك الله الغلة ومن أمثلة ما يرددون ما يلي:

"بسم الله... يا الله.. يا رحمان... بسم الله... يا الله..

يا رحمان... يا رحيم... يا الله... وارحمنا...

صلوا على محمد... صلوا عليه...

صلوا على محمد... صلوا عليه... يا اللي هنا.

صلوا على محمد... صلوا عليه... لله والله..."

ويستقطب سيلان الأودية الكثير ومحاري المياه الكثير من العائلات، فمنهم من يقضي أياما عديدة داخل البساتين، ومنهم من يقوم بتصليح وتنظيف السواقي، وهي فرصة متاحة للأطفال للتمتع والاستجمام والسباحة في المجاري والسواقي خاصة حينما تكون درجات الحرارة مرتفعة وأثناء فصل الصيف تنتقل العائلات إلى الواحات، وهي عادة قديمة عند سكان غرداية لقضاء أجمل الأوقات وسط طبيعة خلابة وجو منعش وتحت ظلال أشجار النخيل وكذا الاستمتاع بمياه الآبار الباردة والعذبة، كما أنها فرصة سامة لالتقاء العائلات والتجول بكل حرية وسط البساتين وإقامة الولائم والوعادات وهو مكان يرح فيه الأطفال ويلعبون ويلهون في جو فسيح بهيج.

والمكونات الأساسية لنمو النباتات والأشجار عكس المياه العادية، والدليل على ذلك انتعاش نمو الأشجار والنباتات والزيادة في الإنتاج بعد كل سيلان.

ونجد أنه وفي كل غابة منفذ لدخول المياه وحينما تمتلئ يحوّل الفائض إلى البستان المجاور والمناطق الأخرى وصولا إلى مجرى الوادي، وعندما تمتلئ الغابة تنزل المياه إلى داخل الآبار. وتكون المنازل والبيوت الثانوية الموجودة وسط الواحة هي في الغالب مباني بسيطة صُممت بطريقة تدخلها السيول لتسقي الأشجار وبساتين النخيل عبر منافذ خاصة، وحينما تمتلئ تخرج المياه من الجهة الأخرى وتواصل طريقها إلى باقي الجهات والحقول دون تدخل الإنسان. والملاحظ أنّ مهندسي هذه السواقي لم يتخرجوا من المعاهد والجامعات الوطنية أو خارج الوطن، بل اكتسبوها عن طريق الخبرة الميدانية، وهو الأمر الذي حير العلماء والمختصين والمهندسين العالميين مثل: "حمادي دلور" (Mammadi Delleure) وأيضا الفرنسي "أندري رافيور" (André Ravereau) و"إيمان بن صالح" و"بدر الدين يوسف" و"نجا منعا"، و"زهير بوقاطوشا" في عمل مشترك¹⁴ وكلهم زاروا منطقة وادي مزاب، ويعود نظام السقي وتوزيع المياه إلى القرن الحادي عشر 11م، ومازال معمولا به إلى يومنا هذا، فالشوارع والممرات مبلطة بحجارة ملساء وبتناسق وانسجام كبيرين تمكّن المياه من السيلان دون أن تحدث أضرارا أو تخلف حفرا، وتمكّن تنقل المواطنين ووسائل النقل بسهولة دون أن تعرقل مصالحهم، وتعدّ واحات النخيل ملكا خاصا، في حين أنّ مياه الأمطار ثروة جماعية، توزّع بالتساوي حسب نظام موزون ودقيق، تشرف عليه جماعة أمناء السيل، لها السلطة المطلقة في مراقبة التجاوزات وفرض الخلافات.

إنّ المقياس الذي استعمل في بناء وترسيم القنوات "نواة أكربوش" وهي نوع من التمر كوحدة قياس للتوزيع مع مراعاة

والنتيجة لا يزال توافق وتناغم في بيئة صحراوية جافة أصبحت
مخضرة تعجّ بالأفنان والأغصان والأشجار والتّخيل.

ويعود الفضل في استحداث هذا النّظام إلى "الشيخ بأحمد
بوسحابة" الذي توفّي عام 1273م وهو من أرسى القواعد
الأساسية لتقسيم مياه الأودية، وجاء بعده "الشيخ حمو ولحاج"
الذي جسّد هذه الأفكار ميدانيا وذلك ببناء الحواجز والسّدود
والسواقي المائية بعد فيضانات مدمّرة عرفتها غرداية. وتجنّدر
الإشارة إلى أنّ الذين عمّروا وادي مزاب اختاروا بناء القرى
وتشييد البيوت والمنازل في قمم الجبال لإدراكهم خطورة الأودية،
وبفضل إرادة السّكان وتعاونهم وصمودهم أمام قساوة الطّبيعة
استطاعوا أن يحوّلوا المناطق الحمراء إلى جنان من أشجار مثمرة
بكلّ أنواعها وكذا أشجار التّخيل بكلّ أصنافها. تدخل المياه
من الجهة الأخرى ثمّ تخرج من المنافذ بمنطقة الشعبة، وكلّ
بستان له قسمته من المياه حسب المساحة وأشجار التّخيل.
وحينما يمتلئ البستان تصبّ المياه في البئر، ويصل حجم المياه
وادي مزاب إلى أكثر من 80 مليون متر مكعب وتبقى مياه
الوادي تسيل لمدة ستّة أيام، وأحيانا تصبّ بنواحي ولاية ورقلة،
ويصل طول الوادي إلى 500 كلم. إنّ النّظام التقليدي للسقي
وتقسيم مياه الأودية ببني مزاب صُنّف ضمن التراث الوطني عام
1971م وضمن التراث الإنساني العالمي من طرف منطّمة
اليونسكو عام 1982.

الخاتمة :

وصفوة القول إنّ طريقة السقي وتوزيع المياه بمنطقة وادي
مزاب لديها خصوصيات نادرة مكّنت الإنسان المزابي من
استغلال مياه الأمطار والسّدود بطريقة بارعة ومتساوية بين أفراد
مجتمعه، معتمدا على قواه التّفسية وقدراته الذهنية والرياضية
والمادية... كما رأينا الطريقة المثلى التي يسعى من خلالها المزابي
الحفاظ على هذه المادة الحيوية في الحياة عبر جمعية أمناء السيل
التي لها الصّلاحية الكبرى في تسيير وتوزيع مياه السدود والآبار،
والكيفية الفريدة التي تمّ عن طريقها تأسيس منافذ للمياه،

قائمة المراجع:

- 7- بن عمر، الحاج موسى، 2015، مزاب وقضايا الوطن والأمة، الجزائر، ط1، منشورات وزارة الشؤون والأوقاف.
8- تأليف مجموعة من المؤلفين، دت، ديوان حماية وادي مزاب وترقية الآبار التقليدية بوادي مزاب، الجزائر، وزارة الثقافة.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Ben Saleh, Imane, Youssfi, Badr Eddine, Najat Manaa et Zouhir Bougattoucha, Urbanisation de la vallée du M'Zab et mitage de la palmeraie de Ghardaïa (Algérie) : un patrimoine oasien menacé, Édition électronique
URL : <http://journals.openedition.org/belgeo/24469>
DOI : 10.4000/belgeo.24469
ISSN : 2294-9135
2- Djerbi, Ali, 2018, Le M'Zab et Djerba : un système de cohérence pour une architecture durable, Revue : Le livre d'or (Maghreb synergie), 11ème édition, office national du tourisme.
3- Ravereau, André, 2001, Le M'Zab : une leçon d'architecture, Paris, Ed : Gallimard.

- ⁵ بكلي، عبد الرحمان، 1982، فتاوى البكري، ج1، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية، ص363.
⁶ الميللي، مبارك بن محمد، 1993، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، الجزائر، دار الهدى، ص214.
⁷ ابن خلدون، عبد الرحمان، 1981، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، مج7، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ص123-124.
⁸ ينظر: أعوش، بكير بن سعيد، 1991، وادي مزاب في ظل الحضارة الإسلامية، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية، ص28.

- ⁹ Ravereau, André, 2001, Le M'Zab : une leçon d'architecture, Paris, Ed : Gallimard.

- 1- ابن خلدون، عبد الرحمان، 1981، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، مج7، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر.
2- ابن خلدون، عبد الرحمان، 2010، المقدمة، القاهرة، ط1، دار ابن الجوزي.
3- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دت، لسان العرب، بيروت، دار صادر.
3- أعوش، بكير بن سعيد، 1991، وادي مزاب في ظل الحضارة الإسلامية، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية.
4- الميللي، مبارك بن محمد، 1993، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج2، الجزائر، دار الهدى.
5- بكلي، عبد الرحمان، 1982، فتاوى البكري، ج1، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية.
6- بن بكير حاج سعيد، 1992، يوسف، تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية.

إحالات الدراسة:

- ¹ ابن خلدون، عبد الرحمان، 1981، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، مج7، بيروت، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ص101-102.
² ابن خلدون، عبد الرحمان، 2010، المقدمة، القاهرة، ط1، دار ابن الجوزي، ص167.
³ ينظر: بن بكير حاج سعيد، 1992، يوسف، تاريخ بني مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية، ص3-4.
⁴ ينظر: الحاج موسى بن عمر، مزاب وقضايا الوطن والأمة، منشورات وزارة الشؤون والأوقاف، الجزائر، ط1، 2015، ص19.

* العايدي: كلمة مزايية أمازيغية الأرجح أنّها مشتقة من الكلمة العربية العادة، ... ونعني بها مجموعة من الأشعار والتباريح التي يؤدّيها المزابيون أثناء قدوم مياه السدّ معلنة خطرا قادمًا وعلى الناس أخذ الحيطة والحذر في بيوتهم وجنائهم ومحيطهم بصفة عامة.

¹⁴ Pour plus d'informations voir : Imane Ben Saleh, Badr Eddine Youssfi, Najat Manaa et Zouhir Bougattoucha, Urbanisation de la vallée du M'Zab et mitage de la palmeraie de Ghardaïa (Algérie) : un patrimoine oasien menacé, Édition électronique
URL : <http://journals.openedition.org/belgeo/24469>
DOI : 10.4000/belgeo.24469
ISSN : 2294-9135

Éditeur :

National Committee of Geography of Belgium,
Société Royale Belge de Géographie

Référence électronique

Imen Bensalah, Badreddine Yousfi, Nadjat Menaa et Zohir Bougattoucha, « Urbanisation de la vallée du M'zab et mitage de la palmeraie de Ghardaïa (Algérie) : un patrimoine oasien menacé », *Belgeo* [En

ligne], 2 | 2018, mis en ligne le 17 juillet 2018, consulté le 19 octobre 2018. URL : <http://journals.openedition.org/belgeo/24469> ; DOI : 10.4000/belgeo.24469

Ce document a été généré automatiquement le 19 octobre 2018.

¹⁰ ينظر: تأليف مجموعة من المؤلفين، دت، ديوان حماية وادي مزاب وترقية الآبار التقليدية بوادي مزاب، الجزائر، وزارة الثقافة، ص5.

¹¹ ينظر: يوسف بن بكير حاج سعيد، تاريخ وادي مزاب: دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ص41، 6.

¹² ينظر: تأليف مجموعة من المؤلفين، ديوان حماية وادي مزاب وترقية الآبار التقليدية بوادي مزاب، ص7-10.

¹³ المعلومات الخاصة بالسقي وفنونه متحصّل عليها من حصّة تلفزيونية من إنتاج التلفزيون الجزائري بعنوان: ترويض المياه الأودية بواحات غرداية، تصوير: فيصل بلحجلة، إعداد وتعليق: حمو باعلي واعمر، إنتاج ألفا دزايين، التلفزيون الجزائري، القناة الرابعة، 2016. وينظر أيضا:

Djerbi, Ali, 2018, Le M'Zab et Djerba : un système de cohérence pour une architecture durable, Revue : Le livre d'or (Maghreb synergie), 11ème édition, office national du tourisme, pp44-50.

* التويضة: كلمة أمازيغية تعني مجموعة الأعمال والأشغال التي تؤدّيها الجماعة داخل المجتمع كبناء مسجد أو بناء مرفق من المرافق وحتى تشييد الطرق والممرّات، فالكلّ يشارك العمل بينما تعدّ النساء مجموعة من أطباق المأكولات التقليدية.